النشاط السياسي والاجتماعي للاطباء في العراق

خلال العصر العباسي

(١٣٢-٦٥٦هـ /٧٤٩/١٢٥٨م)

الدكتور
خضر جاسم محمد الدوري
استاذ مساعد
قسم التاريخ/ كلية التربية
جامعة الموصل

السيد
مؤيد عيدان كاطع
مدرس مساعد
قسم التاريخ/ كلية التربية
جامعة الموصل

حظي الاطباء بشكل عام بالاحترام والثقة ونالوا المكانة التي لايمكن للوصف ان يفيها حقها من قبل الخلفاء والوزراء والامراء والعامة ، تقديراً لجهودهم في السهر على راحة الخاصة والعامة من المجتمع والعناية بصحتهم آنذاك (١)، وقد كان ذلك واضحاً في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، اذ كانت ساحة لتجمع الأطباء من مختلف اقاليم الاسلام فمنهم من تلقى دراسة الطب ومنهم من درّسه . ونتيجة لهذه المنزلة ارتفعت مكانة الأطباء إلى اعلى المراتب ومن خلال ذلك مارسوا نشاطاتهم السياسية والاجتماعية (٢) .

---

(١) السامرائي : كمال / مختصر تاريخ الطب العربي ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام جزءين بغداد /١٩٨٤م ، ج٢ ، ص ٤٤٨ .

(٢) عرب : محمد مرسي / «التراث الطبي العربي بين الاصالة والتجديد» ، مجلة المؤرخ العربي ، لسنة ١٩٧٨م ، ع٩ ، ص ٩٩ .

والبحث محاولة للكشف عن ذلك النشاط السياسي والاجتماعي الذي بقي بعيداً عن ايدي الباحثين ، حيث انصب جلّ اهتمامهم على العلوم الطبية وتأريخها وذكر اشهر الأطباء ، والنشاطات الطبية والنتاجات الفكرية لهم . ولكننا وجدنا الحاجة ماسة لأن نكشف عن النشاط السياسي والاجتماعي لهذه الفئة العلمية .

آ النشاط السياسي :

الكشف عن نشاط الاطباء السياسي يقتضي ان نبحث في علاقاتهم بالمسؤول عن اصدار القرار السياسي وهو الخليفة ،ومايدور بالبلاط وعلاقة ذلك بالوزراء. لقد عدّ الخلفاء وجود الأطباء إلى جانبهم من مستلزمات الحكم للاشراف على صحتهم وصحة اسرهم وحواشيهم (١) وجندهم ، اوليكونوا مثل سائر موظفي البلاط اداة الفخر واظهار الملك ، اذ كان بلاط الخليفة يضم عدداً غير قليل من العلماء والادباء ، وكذلك الاطباء الذين هم وسيلة لتزيين وتجميل بلاط الخليفة واظهار عظمته (٢) ، فعندما يعدد نظامي عروضي اهم خواص الملك نجد ان الطبيب هو جزء اساسي من خواص الخليفة لرعاية صحة بدنه فيقول : « الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب من خواص الملك ولا غنى للملك عنهم ، فقوام الملك بالكاتب وتخليد الأسم بالشاعر ، نظام الأمور بالمنجم وصحة البدن بالطبيب » (٣) .

وقد بلغت مرتبة الأطباء عند الخلفاء من الحب والأكرام مقاماً رفيعاً على نحو ماقام به الخليفة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) عندما ذهب للحج ، اذ دعا الله ان يحفظ طبيبه جبرائيل فكان بذلك اول صنيع يقوم به خليفة وعندما استغرب بنو هاشم الأمر ، قائلين : « ياسيدنا ذمي فقال :

---

(١) القفطي : جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ، تاريخ الحكماء ، مكتبة المثنى ، بغداد /١٩٥٣م ، ص ٣٣٢ .

(٢) السامرائي / مختصر تأريخ الطب العربي ، ج٢ ، ص ٤٤٨ .

(٣) السمرقندي / جهار مقالة (المقالات الاربع في الكتابة والشعر والنجوم والطب ، ترجمة عبدالوهاب عزام ، يحيى الخشاب ، الطبعة الاولى / القاهرة /١٩٤٩م ، ص ٢٠ - ٢١ .

نعم ، ولكن صلاح بدني وقوامه به ، وصلاح المسلمين بي . فصلاحهم بصلاحه وبقائه . فقالوا صدقت ياأمير المؤمنين » (١) .

وهذا دليل على ان الخلفاء كانوا مدركين لأهمية الطبيب ، بل ان الخليفة كان يعي اهميته وهو امام المسلمين ، وان بقاء الامة الاسلامية (الدولة الاسلامية) رهين بوجود الخليفة وقيامه بتأدية مهامه ومسؤولياته مرهون بصحتة (٢) ، وللطبيب دور مهم وحاسم في الحفاظ على سلامة وصحة الخليفة . ومن هنا تأتي اهمية الطبيب للحفاظ على احد الأسس التي تقوم عليها الملة الاسلامية ، وهو الامام ، ولهذا لانستغرب عندما يصف الخليفة المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ – ٨٤٢م) طبيعة العلاقة بينه وبين طبيبه سلمويه بقوله : « سلمويه طبيبي اكبر عندي من قاضي القضاة لان هذا يحكم في نفسي ونفسي اشرف من مالي وملكي » (٣). ومعنى ذلك ان اهمية الأطباء لم تأتي من مجرد اهميتهم في الحفاظ على صحة الانسان (الخليفة) او المسؤولين الأخرين ،بل ان محتوى المهنة هو اشرف من محتوى ماتنطوي عليه المهن الأخرى ، لأن الطبيب يهتم بالنفس (الروح) الانسانية وهذه من حيث المنزلة اشرف من المال (المادة)، فكيف اذا كانت هذه النفس نفس امير المؤمنين (الامام) .

---

(١) ابن ابي اصيبعة : موفق‌الدين ابي العباس ، احمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) / عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتحقيق / نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت /١٩٦٥م ، ص ١٩٢ ، وسأرمز له في الاحالات القادمة ، عيون الانباء ، السامرائي : خليل ابراهيم / دراسات في تاريخ الفكر العربي ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٣م ، ص ٣٠٩ .

(٢) والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان : احدهما جرح في عدالته ،والثاني نقص في بدنه ، /نقص الحواس والاعضاء) ، الماوردي :ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، مطبعة مصطفى العاني / الحلبي / ١٩٦٠م ، ص ١٧ – ١٨ .

(٣) ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ص ٢٣٤ .

وعندما يقارن الخليفة هارون الرشيد بين من يحرسه من الناس (كصاحب الحرس ، والحاجب) ، وبين من يحرسه من الأمراض والاسقام (الطبيب) ، يفضل الخليفة الرشيد الطبيب عليهما ، ويأمر بزيادة تخصيصاته (١) .

وقد وصف الخليفة المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧هـ /٨٤٧ – ٨٦١ م) طبيعة العلاقة او المنزلة بينه وبين الطبيب بختيشوع قائلا لوزيره : « اكتب في ضياع بختيشوع فانها ضياعي وملكي فان محله منا محل ارواحنا من ابداننا » (٢).

ولم يقتصر دور الاطباء على حدود المعالجة والتطبيب ، بل كان عليهم ان يلازموا الخلفاء ويرافقوهم في الاسفار سواء اكانت للحج ام للنزهة اوللحرب بل حتى عند تناولهم الطعام (٣) .

وكان للاطباء طرق متعددة للتدخل او ممارسة التأثير السياسي فأحياناً يحصل التقرب عند شفاء الخليفة او احدى نساء الحاشية من مرض ، ويكون ذلك مبادأة لبروز الطبيب وهذا ماحصل للطبيب جبرائيل بن بختيشوع من الخليفة الرشيد« وجعله رئيساً على جميع الاطباء » (٤) . وفي احيان اخرى يحصل التأثير عن طريق الاتصال بأحد الأمراء المسجونين حيث يقيم الطبيب معه علاقة قوية وعند اطلاق سراح الأمير وتنصيبه خليفة يزداد نشاط الطبيب السياسي ومن الإمثلة التي يدونها لنا التاريخ هي : « ان الموفق لما غضب على ابنه ابي العباس المعتضد بالله حبسه في دار اسماعيل بن بلبل وكان احمد الحاجب موكلا به ، وتقدم اسماعيل بن بلبل إلى ثابت بن قرة بأن يدخل إلى ابي العباس ويؤنسه ... فأنس ابو العباس بثابت ابن قرة انساً كثيراً . وكان ثابت يدخل

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

(٣) القفطي / تاريخ الحكماء ، ص ٤٠٥ ، ينظر ، الصابي : ابو الحسن هلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) / رسوم دار الخلافة ، تحقيق ، ميخائيل عواد ، مطبعة العاني / بغداد /١٩٦٤م ، ق٣ ، ص ٨٦ ، ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ص ٢٢٤ ، ص ٤٧٥ – ٤٧٦ .

(٤) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

اليه إلى الحبس في كل يوم ثلاث مرات يحادثه ويسليه ، ويعرفه احوال الفلاسفة وامر الهندسة والنجوم وغير ذلك ، فشغف به ولطف منه محله . فلما خرج من حبسه قال لبدر غلامه :

يابدر اي رجل افدنا بعدك؟ فقال: من هو ياسيدي؟ فقال: ثابت بن قره. ولما تقلد الخلافة اقطعه ضياعاً جليلة وكان يجلسه بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام. ويكون بدر غلام الأمير قائماً والوزير ، وهو جالس بين يدي الخليفة» (١)

ولم تقتصر طرق اتصال الاطباء برجال السياسة على معالجة الأمراض البدنية بل يكون الاتصال احياناً ، اقوى تأثيراً عندما يكون الأشراف الطبي على الأمراض العصبية والنفسية ، وهذا ماحصل للطبيب سنان بن ثابت، مع الأمير ابي الحسين بجكم قال: ثابت بن سنان: «لما مات الراضي بالله (٣٢٢ – ٣٢٩هـ/ ٩٣٤–٩٤٠م) استدعى الأمير ابو الحسين بجكم والدي سنان بن ثابت وسأله ان ينحدر اليه الى واسط.. فانحدر اليه والدي.. وقال له: «اريد ان اعتمد عليك في تدبير بدني وتفقده والنظر في مصالحه. وفي امر آخر هو اهم الي من امر بدني،وهو امر اخلاقي ، لثقتي بعقلك وفضلك ودينك ومحبتك. فقد غمني غلبة الغضب والغيظ عليّ ، وافراطهما بي حتى اخرج الى ماالدم عليه عند سكونهما من ضرب وقتل» (٢) .

وهذا يشير الى ان الطبيب قد اعطي صلاحية اوسع في الاشراف على بعض القرارات التي يتخذها الامير، والقدرة على منعه في اثناء غضبه من اتخاذ ما يضر بمصالح الناس، مما كان يفسح المجال لان يصبح الطبيب مرشداً سياسياً يؤشر مواطن الخطأ والصواب للامير اذ يقول الأمير بجكم :« وانا اسألك ان تتفقد ما اعمله. واذا وقفت لي على عيب لم تحتشم ان تصدقني عنه وتذكره لي وتنبهني عليه، ثم ترشدني الى علاجه ليزول عني» .. (ويواصل ثابت بن سنان

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .

قوله) «وما زالت اخلاقه تصلح ووالدي ينبهه على شيء شيء مما ينكره منه من اخلاقه وافعاله ويرشده الى طريق ازالته . الى ان لانت اخلاقه، وكف عن كثير مما كان يسرع اليه من القتل والعقوبات الغليظة» (١) .

وتأسيساً على ماسبق بلغ الأمر بالاطباء ان يكونوا عند الخلفاء بمنزلة تعلو القادة والأمراء، واصبحوا هم الوساطة التي من خلالها يصل الآخرون بها الى الخليفة، فنرى الخليفة هارون الرشيد يوجه اصحابه قائلا: «كل من كانت له الي حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لاني افعل كل مايسألني فيه ويطلبه مني فكان القواد يقصدونه في كل امورهم» (٢) .

وفي حالات اخرى كانت المراسيم الخلافية (التواقيع) لاتصدر الا بخط بعض الأطباء وهذا ماحصل عندما اختار الخليفة المعتصم طبيبه سلمويه ابن بنان اذ « كان يرد الى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخط سلمويه، وكل ماكان يرد على الأمراء والقواد من خروج امر وتوقيع من حضرة امير المؤمنين فبخط سلمويه» (٣) .

ولم يقتصر الأمر على الأطباء في المنزلة بل ذهب الى ان مارس اقارب الأطباء كأخوتهم شأناً في ذلك فنجد ابراهيم بن بنان اخا الطبيب سلمويه قد ولى خزن بيوت الأموال في البلاد وخاتمه مع خاتم امير المؤمنين ، ولم يكن احد عنده مثل سلمويه واخيه ابراهيم في المنزلة» (٤) .

كما اناط الخلفاء بالاطباء مهمات ذات طابع سياسي فقد كان بعضهم مستشاراً ومعلماً للخليفة. وهذا ماحصل للطبيب احمد بن الطيب السرخسي مع الخليفة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ ، ص ١٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ ، ص ٣١٦ ، خيرالله : امين اسعد / الطب العربي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت /١٩٤٦م ، ص ٥١ .
(٤) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

المعتضد بالله (٢٧٩ – ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ – ٩٠٣م) اذ « كان يفضي اليه باسراره ويستشيره في امور مملكته» (١) .

ومنهم من كلف بمهمات سياسية اخرى كالسفارة او رئاسة الوفود والوجاهة وهذا «احصل للطبيب فنون الذي «كان هو السفير بين بختيار (٢) والخليفة » (٣) .

وما حصل للطبيب شمس الدين بن هبل الذي كان «وجيهاً في الدولة وسافر الى بلاد الروم وأكرمه صاحب الروم الملك الغالب كيكاوس بن كيخسرو» (٤)، احد الملوك السلجوقيين في اسيا الصغرى. ولم يقتصر الأمر على هذه المهمات، بل وصل بعضهم الى منزلة الوزير في الموقع، كالطبيب صاعد ابو الفرج الذي «تقدم في ايام الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ – ١٢٢٥م) الى ان كان بمنزلة الوزراء واستوثقه على حفظ اموال خواصه وكان يودعها عنده ويرسله في امور خفية الى وزرائه ويظهر له في كل وقت وكان حسن الوساطة قضيت على يده حاجات واستكفيت بوساطته شرور» (٥)

---

(١) المصدر نفسه / ص ٢٩٣ .

(٢) عزالدولة (ت ٣٦٧هـ/٩٧٨م) ، «بختيار ابو منصور ، عزالدولة ابن معز الدولة أحمد بن بويه ، احد الامراء من بني بويه ، ديلمي الاصل » . الزركلي : خيرالدين / الاعلام ، قاموس تراجم ، (٨ أجزاء) ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت /١٩٧٩م، ج٢ ، ص ٤٤ ، ينظر ، ابن الأثير : عزالدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ – ١٢٣٢م) / الكامل في التاريخ (١٢ جزء) ، دار صادر ، بيروت /١٩٦٥م ج٨ ، ص ٥٧٥ .

(٣) ابن ابي اصيبعة / عيون الأنباء ، ص ٣٢١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤١٠ .

(٥) القفطي / تاريخ الحكماء ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ؛ ابن ابـي اصيبعة / عيون الانباء / ، ص ٤٠٥ .

ومنهم من تقلد مواقع رسمية متقدمة بالدولة، وهذا ما حدث للطبيب ابن سينا (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) عندما تقلد الوزارة في عهد الأمير (١)شمس الدولة (٢).

وقد وصلت مرتبة الأطباء الى مستوى اجلاء القواد فبعضهم. اصبح موكبه اشبه بموكبهم ومن الامثلة على ذلك الطبيب اسرائيل بن زكريا الطيفوري كان اذا «ركب الى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الامراء واجلاء القواد وبين يديه اصحاب المقارع» (٣).

سبق ان اشرنا الى ان الطبيب هو احد خواص الملك، ومعنى ذلك ان يختص طبيب بخليفة او امير ويلازمه، ولا يجوز ان يتصل بالاخرين الا بعد موافقة سيده واستئذانه خشية من ان يستغل الاطباء للمؤامرات والدسائس او ان تمر من خلالهم ، خاصة اذا مااشتركوا بمعالجة اكثر من واحد من البلاط . وعلى الرغم من التخصص كان التبادل قائماً بين طبقة الاعيان وبخاصة في الحالات الصعبة العلاج وهذا ماحصل مع احدى نساء بلاط الخليفة الرشيد عندما مرضت، فقال جعفر بن يحيى للرشيد لي طبيب ماهر، جبرائيل بن بختيشوع يشفيها، وقد تحقق لها الشفاء بعد ان عالجها (٤) .

---

(١) وهو شمس الدولة بن فخر الدولة حاكم الري / ينظر ، ابن الأثير / الكامل في التاريخ ، جـ٩ ، ص ٢٥٠ .

(٢) القفطي : المصدر نفسه ، ص ٤١٩ ، ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٤٤٠ ، صفوي : رحيم زاده / ابو علي بن سينا نبذه عن حياته السياسية ، مطبعة اسعد ، بغداد ١٩٥٣م ، ص ٧٣ ، قنواتي : شحاته / تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والوسيط دار المعارف ، مصر /١٩٥٨م ، ص ١٥٥ ، لاندو : روم الاسلام والعرب ، دار العلم للملايين ، بيروت /١٩٦٢م ، ترجمة ، منير البعلبكي ، ص ٢٦٥ .

(٣) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

وهنالك اشارات تاريخية (١) تؤكد ان بعضاً من الاطباء ادركوا خطورة شأنهم فمارسوا نشاطا سياسياً سلبياً ، ولذلك يقول الطبيب عيسى بن شهلا مخاطباً في كتابه احد المطارنة: «الست تعلم ان امر الملك بيدي! ان شئت امرضته وان شئت عافيته» (٢) .

وثمة امثلة اخرى تشير الى الأثر الذي مارسه الطبيب ابن صفية في الصراع الذي وقع بين كل من وزير الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ ــ ٥٦٦هـ) ١١٦٠ ــ ١١٧٠م) شرف الدين بن البلدي والأمير قطب الدين قايماز الذي كان من كبار الامراء ، حيث التزم جانب الأمير وتمكن من توسيع شقة الخلاف بين الخليفة والأمير (٣) :

وبفعل النتائج السلبية التي كانت تنتج لتدخل بعض الأطباء في الشؤون السياسية ومسائل التآمر ظهر تيار آخر من الاطباء احجم عن التدخل في شؤون الدولة او استخدام نفوذه لامور سياسية ، ولم يتجاوز حدود المهنة، ومثال ذلك الطبيب ابن التلميذ (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) الذي اقتصر امره على المداواة وعدم تجاوز وظيفته الطبية، فعندما حضر السلطان محمد بن محمود (٤) خوارزمشاة الى بغداد مرض عندما كان عسكره بظاهر بغداد فكان الطبيب ابن التلميذ يعالج الخليفة المقتضي (٥٣٠ ــ ٥٥٥هـ / ١١٣٦ ــ ١١٦٠م) داخل بغداد ويعاود السلطان بظاهر بغداد فقال: «له وزير السلطان ايها الرئيس انني قد كنت عند السلطان وذكرت له من فضلك وادبك ورآستك، وقد امر لك بعشرة الاف دينار . فقال له : يامولانا قد امر لي من بغداد بأثني عشر الف دينار افيأذن لي في قبولها السلطان؟ » (٥) . وهذا يشير الى محاولة استدراج طبيب

---

(١) في فترة الخليفة المنصور (١٥٨ - ١٦٩هـ/٧٧٥ - ٧٨٥م) .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ ، ص ٢٥٤ .
(٤) ابن ملكشاه (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) ، محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه ، سلطان سلجوقي كان في همذان ، وحاصر بغداد ، فامتنعت عليه / الزركلي / الاعلام ، جـ٧ ، ص ٨٦ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

الخليفة للتآمر على الخليفة من خلال منحه مبالغ من المال، فكان جواب الطبيب ابن التلميذ: «يامولانا ان رجل طبيب لاتجاوز وظائف الأطباء وما يلزمهم، ولا اعرف الا ماء الشعير والنقوع وشراب النفسج والنيلوفر وحتى اخوجت عن هذا لااعرف شيئاً» ونقل عنه قوله : لاينبغي للطبيب ان يداخل الملوك في اسرارهم» ولا يتجاوز حدود الطب ، فأن تجاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه وكان ينشد: (١)

واذا انبت المهيمن للنمل جناحاً اطارها للتردي
ولكل امرىء من الناس حد وهلاك الفتى جواز الحد

واذا اردنا ان نستكشف اونؤشر دوافع هذ التيار وجدناها تكمل في اجابة الطبيب حنين بن اسحق عندما استفسر منه الخليفة المتوكل عن سبب امتناعه من تحضير سم يقتل به عدواً قائلا : شيئان ياامير المؤمنين . قال : وما هما ؟ قال « الدين والصناعة قال : فكيف ؟ قال : الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع اعدائنا فكيف اصحابنا واصدقائنا ، ويبعد ويحرم من لم يكن كذا . والصناعة تمنعنا من الاضرار بابناء الجنس لانها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم » (٢) .

ولعلنا لانغفل موقف الدولة عندما كانت تشعر ان بعض الاطباء يقومون باستغلال بعض الناس او يتدخلون في الشؤون السياسية، فلم تكن تتوانى عن ردعهم ، كالذي حدث للطبيب عيسى بن شهلا، حيث نفي وصودرت جميع املاكه (٤) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦١ ، براون : ادورد -جي / الطب العربي ، ترجمة : داؤد سليمان علي، مطبعة بغداد / بغداد / ١٩٨٦م ، ص ٢٨ .
(٣) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤٨

ومن الامثلة الاخرى على تجاوز الاطباء ماحصل للطبيب ابن صفية فعندما اطلعت الخلافة على تجاوزه لم تتأخر في ردعه «فاستحضره الخليفة (المستضيء بأمر الله (٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠م) ليلا وقال له: ياحكيم عندي من اكره رؤيته واريد ابعاده بوجه لطيف غير شفيع. فقال له: نرتب له شربه قويه بالغة يشربها وقد حصل الخلاص منها كما تؤثر. فمضى وركب شربه، كما وصف واحضرها ليلا ودخل بها الى عند الخليفة ففتحها. ونظراليها .وقال ياحكيم استف هذه الشربة حتى تجرب فعلها ، فتلوى من ذلك وقال : الله ، الله يامولانا فيّ؟ فقال له: الطبيب متى تعدى حده وتجاوز طوره وقع في مثل هذا وليس لك من هذا خلاص الا السيف فاستف الحكيم الشربة التي ركبها وفر من الهلاك الى الهلاك»(١).

(ب) النشاط الاجتماعي:

كان للاطباء نشاطات اجتماعية جلية واضحة . واذا اردنا ان نعرف دوافع تلك النشاطات الاجتماعية فيمكن ان نرجعها الى مايأتي:

١ ـ علاقتهم بالسلطه :

تحدثنا سابقاً عن العلاقة السياسية للاطباء برجال الدولة، والتي نتج عن بعضها علاقات اجتماعية حميمة، ادت الى تقريب الطبيب لأسرة الخليفة من خلال كونه مشرفاً على صحته، على نحو ماجرى للطبيب جورجس بن جبرائيل، اذ امر الخليفة الرشيد، ان يدخل جورجس الى نساء حاشيته وحرمه ويخدمهن(٢)

وقد بلغت العلاقة الاجتماعية بين الأطباء والخلفاء ان يحضر الطبيب موائد الخليفة لاهتمامه بغذائه، وكان الطبيب باستمرار احد المدعوين للأكل ، بل وفي بعض الاحيان لايأكل الخلفاء الا بحضور الاطباء فعندما قدمت الموائد «بين يدي الرشيد في بعض الايام وجبرائيل بن بختيشوع غائب.. طلب جبرائيل

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

ليحضر اكله على عادته في ذلك (١). فضلا عن ذلك فأن جعفر بن يحيى بن برمك كان «لايصبر ساعة» عن الطبيب جبرائيل« ومعه يأكل ويشرب»(٢) . واكثر من ذلك نجد ان الخليفة الأمين (١٩٣ـ١٩٨هـ/ ٨٠٩ـ ٨١٣م) « لايأكل ولا يشرب الابأذنه » (٣) وهنا تصبح الثقة مطلقة.

ومن الأمثلة التاريخية الاخرى ماحصل زمن الطبيب يوحنا بو ماسويه (ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م)اذ « كانت ملوك بني هاشم لايتناولون شيئاً من اطعمتهم (٤) الا بحضرته . وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشات (٥) الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء، وفي الصيف الأشربة الباردة والطابخة المقوية والمعاجين»(٦) .

وبحكم تقدم العلاقة الاجتماعية (٧) بين الأطباء والخلفاء كانوا لا يرضون ان يقوم الخليفة بأي عمل طبي لنفسه دون اخذ شورتهم ، واذا ما حصل ذلك كان الأطباء يظهرون عدم ارتياحهم للخلفاء وكان الخلفاء حراصاً

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٧٥ – ٤٧٦ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩١ .

(٢) القفطي / تاريخ الحكماء ، ص ١٣٤ ؛ ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

(٣) القفطي / المصدر نفسه ، ص ١٤١ ، ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٤) «بل يلغ الاهتمام بغذاء الخليفة إلى الحد الذي يؤلف له كتاب في (الطبيخ) ، وكثيراً ما يصار إلى تنظيم قائمة طبخ تراعي التبدلات الجوية التي لها علاقة بتأثر البدن في التقلبات والمواسم (ككتاب الطبيخ) الذي الفه الطبيب احمد بن الطيب السرخسي على الشهور والايام للخليفة المعتضد» ، بن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٩٤ .

(٥) الجوارش : القميحة ، وهي كالسفوف يتخذ للهضم ، وهو الجوارشن . رضا : احمد / معجم متن اللغة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت /١٩٥٩م ، جا ، ص ٥١٠.

(٦) ابن جلجل : ابو داؤد سليمان بن حسان الاندلسي (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) طبقات الاطباء والحكماء ، تحقيق : فؤاد السيد ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة /١٩٥٥م، ص ٦٥ ،.ينظر / القفطي / المصدر نفسه ، ص ٣٨٠ ، ابن ابي اصيبعة ، المصدر نفسه، ص ٢٤٦ .

(٧) «في احيان كثيرة كان الخلفاء لايتناولون الادوية الا من خلال أطبائهم الخاصين وبعلمهم ، وهذا ما حصل للطبيب ميخائيل بن ماسويه الذي كان الخليفة المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ / ٨٠٩ – ٨١٣م) لا يتناول دواء الا من تركيبه واصلاحه حتى بجله المتطببون تبجيلا فاق غيره» . ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ .

على رضا اطبائهم ، ومن الاشارات التي تؤكد ذلك هو وجد الطبيب اسرائيل بن زكريا الطيفوري على الخليفة المتوكل عندما احتجم بغير اذنه (١).

ولما كان الخليفة والطبيب من طبقتين مختلفتين اجتماعياً من كل الوجوه كان على الطبيب ان يعرف بدقة كيفية التعامل مع هؤلاء اجتماعياً وثقافياً، ولهذا نجد ان بعض الأطباء ممن خبروا هذه العلاقة قد الفوا كتباً ترشد الطبيب إلى كيفية التعامل مع طبقة الخلفاء او الامراء فاسحق بن علي الرهاوي احد الاطباء العراقين ، قد الف كتاباً في (ادب الطبيب) (٢) .

وكان الخلفاء يتابعون اطباءهم ويهتمون بسكنهم ومشربهم ومأكلهم حتى وصل الأمر إلى ان يهتم الخليفة المنصور (١٤٥ – ١٥٨هـ/٧٦٢ – ٧٧٥م) ، بسكن الطبيب جورجس اذ قال للربيع : «انزله في منزل جليل من دورنا ، واكرمه كما تكرم اخص الأهل ... وامر ان يجاب لى كل ما يسأل» (٣).

ولم يقتصر الحال على ذلك بل وصل الاهتمام إلى حد ان يتفقد الخلفاء الحالة الاجتماعية لاطبائهم كالزواج (٤) .

ومن اهتمام الخلفاء بغذاء الاطباء ومشربهم ، هو استفسار الخليفة المنصور من الربيع عن احوال جورجس اذ قال له : «ارى هذا الرجل قد تغير وجهه . لا يكون قد منعته مما يشربه على عادته ؟ قال له الربيع : لم نأذن له ان يدخل الى هذه الدار مشروباً ، فأجابه بقبيح وقال له : لابد ان تمضي بنفسك حتى تحضر من المشروب كل مايريده ، فمضى الربيع الى قطربل (٥) ، وحمل منها الى غاية ماامكنه من الشراب الجيد» (٦) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩١ ، ص ٣٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

(٥) «قرية بين بغداد وعكبرا . وقيل هو اسم لطسوج من طساسيج بغداد ، فما كان من شرقي الصراة ، فهو بادوريا . وما كان من غربيها فهو قطربل» ، الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) / معجم البلدان (٥ أجزاء) ، دار صادر ، بيروت /١٩٥٥م ، ج٤ ، ص ٣٧١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

ويذكر عن الطبيب يوحنا بن ماسويه انه كـان في مجلس الخليفـــة الواثـــق (٢٢٧–٢٣٢هـ) (٨٤٢ – ٨٤٧م) وقدم له الساقي «شراباً غير صاف ولا لذيذ ..... فوجد امير المؤمنين على السقاة وقال : يسقون اطبائي وفي مجلسي ، مثل هـذا الشراب» (١) .

وكان للأطباء مجالس خاصة احياناً ما تعقد مع الخلفاء كالذي حصل مـع الطبيب سلمويه بن بنان الذي كان يصل الخليفة المعتصم في مجالس جده وهزله(٢) و في احيان اخرى يعقد الأطباء مجالس للظرف والمنادمة يجتمع فيها اكابر العلماء و الاطباء ومن امثلة ذلك مجلس الطبيب سهل الكرسج (٣) الذي كـان يجتمع فيه مع الطبيب يوحنـا بن ماسويـه ، وجورجس بن بختيشـــوع ، وعيسى بن حكم ، وزكريا بن الطيفوري وغير هم ، وكانوا يهابون سهلا لكبر سنه وطول لسانه وسلاطته (٤) .

ولم تقتصر مجالس الأطباء على المناقشات العلمية ، بل كان بعضها بمثابة لقاء ادبي ينشد فيه الشعر ، وبعضها الآخر كان يتضمن الغناء والضرب على آلات الطرب ، ومنهم من كتب في الموسيقى لان الموسيقى كانت تعد من العلوم الرياضية ومن هؤلاء الاطباء احمد بن الطيب السرخسي (ت ٢٨٣هـ –٨٩٩م) وكتاب (اللهو والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغنـــاء والمغنـــين والمنادمـــة والمجالسة وانواع الاخبار والملح) وكتاب (الموسيقى الكبير) وكتاب (الموسيقى الصغير) ، وكتاب (المدخل الى علم الموسيقى) (٥) . واحياناً تكون مجالس

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ .
(٣) «في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي» .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ ؛ السامرائي / مختصر تأريخ الطب العربي ، جـ٢ ، ص ٤٥٢ .
(٥) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٩٤ ، ص ٤٥٩ –٤٦٠ ، السامرائي / المرجع نفسه / جـ٢ ، ص ٤٥٣ .

الأطباء مكاناً للمخاصمة ، خاصة اذا ما كان في المجلس اطباء متنافسون او متحاسدون (١) .

ويروى ايضاً في اطار احترام الاطباء وارتفاع منزلتهم كعلماء ذوي مكانة مرموقة لدى الدولة والمجتمع ماحصل للطبيب ابي الحسن ثابت بن قرة الحراني عندما كان يمشي مع الخليفة المعتضد في بستان دار الخليفة ، وكان الخليفة فيها متكئاً على يد ثابت فنتر يده عن يد طبيبه وقال : «ياابا الحسن .. سهوت ، ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون فان العلماء يَعلون ولا يعلون» (٢) .

ان طبيعة العلاقة قد تجاوزت حدود فحص الخلفاء ومعالجتهم الى الحد الذي كان الطبيب للخليفة ، صديقاً ونديماً وسميراً وعشيراً حميماً (٣) ، بل تصل العلاقة احياناً الى حد انهم ينادون الطبيب بـ(ابي) على نحو ماجرى بين الطبيب سلمويه والخليفة المعتصم (٤) ، بل كان منهم مَنْ يكني الاطباء ... اكراماً واكباراً (٥) .

ومن الأطباء من بلغت علاقته مع الخليفة حد الانسجام بين اسرتي الخليفة والطبيب حتى اقترب من مستوى الاخوة والأهل ، مثلما وقع بين الطبيب غالب والخليفة المتوكل اذ «ارتضع سائر ابناء المتوكل من لبن اولاد غالب فكان يسر بهم ، فلما تمكن الموفق من الامر اقطعه ونوله واغناه ، وكان له مثل الوالد ينادمه ويغلفه بيده» (٦) .

---

(١) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٣٧٦ ، السامرائي / المرجع نفسه جـ٢ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

(٢) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٩٦ ، العلوجي ، عبدالحميد / تاريخ الطب العراقي ، مطبعة اسعد ، بغداد /١٩٦٧ ، ص ٣٦ .

(٣) القفطي / تاريخ الحكماء ، ص ٣٨٧ ، ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ ، صائغ القس سليمان / تاريخ الموصل ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت /١٩٢٨ ، جـ٢ ، ص ٤٦ .

(٤) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ ، ص ١٩٠ .

(٥) القفطي / تاريخ الحكماء ، ص ١٠٠ ، ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٦) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٣١١ .

وكان الخلفاء يتابعون اطباءهم عندما يمرضون ويعودونهم اما شخصياً او من خلال ارسال الكتاب والحجاب وهذا ماحصل عند مرض الطبيب جورجس سنة (١٥٢هـ - ٧٦٩م) طبيب الخليفة المنصور وكان يتفقد اوضاعه الصحية من خلال ارسال خدمه كل يوم للاطلاع على حاله ، وعندما اشتد مرضه امر الخليفة ان يحمل على سرير الى دار العامة ، وتوجه اليه الخليفة ماشياً واطلع على خبره ، واذن له بالانصراف الى بلده نزولاً عند رغبته (١) . وكذلك عندما مرض سلمويه بن بنان طبيب الخليفة المعتصم عاده الخليفة شخصياً وبكى عنده ، وعند وفاته امتنع الخليفة عن الطعام (٢) . وقد حصل ذلك ايضاً في زمن الخليفة المتوكل عندما مرض طبيبه اسرائيل بن زكريا الطيفوري عاده الخليفة «يوماً وقد غشي عليه فصير يده تحت راسه مخده ، ثم قال للوزير : ياعبدالله حياتي معلقة بحياته ان عدمته لاعيش ثم اعتل فوجه اليه سعيد بن صالح حاجبه ، وموسى بن عبدالملك كاتبه يعودانه» (٣) .

وقد بلغت الصلة الاجتماعية بين الخلفاء والاطباء الى حد مشاركة رجال الدولة في الاحداث الاجتماعية المؤسفة كتأدية مراسيم العزاء عند وفاة احد اسرهم ، فعندما توفي غالب طبيب الخليفة المعتضد بالله بآمد ، عزى الخليفة ابنه سعيد بن غالب بوفاته ، فأتبعه الخليفة بآجل خدمه لتعزيته وبعد انتشار خبر الوفاة لم يبقى احد الا وسار اليه وعزاه بأبيه من الوزير والامراء والقواد والأولياء على طبقاتهم (٤) .

وفي المجتمع عندما يكون الانتماء الديني او المذهبي اساساً في تصنيف الفئات الاجتماعية وتحديد منزلتها ومقامها في بلاط الخليفة والتزامها بمراسيم ذلك

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ ، العلوجي / تاريخ الطب العراقي ، ص ٣٥ .
(٢) القفطي / المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .
(٣) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣١٢ .

البلاط ، يؤثر ذلك على منزلة الاطباء بسبب انتماءتهم الدينية ، وهذا مايلاحظ على الطبيب اوحد الزمان (١) ابي البركات (ت بحدود ٥٦٠هـ - ١١٧٢م) . وقد قيل ان «سبب اسلامه انه دخل يوماً الى الخليفة فقام جميع من حضر الا قاضي القضاة ، فأنه كان حاضراً ولم ير انه يقوم مع الجماعة لكونه ذمياً فقال. ياامير المؤمنين ان كان القاضي لم يوافق الجماعة لكونه يرى اني على غير ملته : فأنا اسلم بين يدي مولانا ، ولا اتركه ينتقصني بهذا واسلم» (٢) .

كما كان للاطباء نشاط اجتماعي يوازنون من خلاله علاقتهم مع الائمة التي ينتمون اليها دينياً وغيرها . فوازنوا المسالة الاجتماعية بين علاقتهم مع المسلمين من الخلفاء وبين علاقتهم مع فئتهم . وهذا مايلاحظ على اهداء الطبيب قسطاً بن لوقا البعلبكي (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) كتاب (في معرفة الخدر وانواعه وعلله واسبابه وعلاجه) الى قاضي القضاة ابي محمد الحسن بن محمد لتمتين علاقته في حين اهدى بطريق البطارقة ابي غانم العباس بن منباط (كتاب في الاغذيــة على طريق القوانين الكلية) (٣) .

٢ ــ الثراء :

ولا شك ان المردودات الاقتصادية التي كان يحصل عليها الاطباء عند معالجة الخليفة او احدى نساء بلاطه ، كانت احد الاسباب التي زادت من اهمية الطبيب ومنزلته اجتماعياً، فقد كان مجمل الايراد السنوي لبعضهم مثل الطبيب جبرائيل بن بختيشوع (٤٩٠٠,٠٠٠) درهم على الوجه الاتي (٤).

---

(١) وقد كان في خدمة الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦هـ/١١٦٠ - ١١٧٠م) .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .
(٤) القفطي / المصدر السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، / ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

(ا) من رسوم العامة، (في كل شهر) .
١٠,٠٠٠ درهم (عن الورق)
٥,٠٠٠ درهم (نزل في الشهر) .
(ب) من رسوم الخاصة :
٥٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة من الورق)
١٠,٠٠٠ درهم (ثياب)
١٠٠,٠٠٠ درهم (بدفعتين بالسنة لفصد الخليفة الرشيد)
١٠٠,٠٠٠ درهم (بدفعتين بالسنة لشرب الدواء)
٤٠٠,٠٠٠ درهم (كل سنة من الورق من اصحاب الرشيد عن قيمة الكسوة والطيب والدواب)
وعلى النحو الاتي:
٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من عيسى بن جعفر)
٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من زبيدة ام جعفر).
٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من العباسة)
٧٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من فاطمة ام محمد)
٣٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من ابراهيم بن عثمان)
٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من الفضل بن الربيع) .
١٠٠,٠٠٠ درهم (كسوة وطيب ودواب)
(ج) من املاكه في جنديسابور :
٨٠٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة غلة ضياعة بجند يسابور والسوس والبصرة والسواد)
٧٠٠,٠٠٠ درهم (من فضل مقاطعته)
(د) ومن البرامكة:
٦٠٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة تؤخذ من يحيى بن خالد)
١٢٠٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة تؤخذ من جعفر بن يحيى)
٦٠٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة تؤخذ من الفضل بن يحيى)

وعلى الرغم مما يلاحظ من المبالغة في المبالغ التي كان يتقاضاها الطبيب جبرائيل الا انها تشير الى اعظم الثراء الذي كان عليه، والى تنوع الجهات المانحة لتلك المبالغ (١) .

ومن التخصصيات التي حددت للاطباء ، وكانت مجالا للثراء «اجراه «الفضل على ماسويه في كل شهر ستمائة درهم وعلوفه دابتين، ونزل خمسة غلمان (٢) . وغالباً ماترتفع هذه التخصيصات بفعل نشاط الطبيب وجهوده وهذا ماحدث عندما عالج الطبيب ماسويه عيون الخليفة الرشيد وبرئت «فأمر بأن يجرى عليه الفا درهم في الشهر ومعونة في السنة عشرون الف درهم وعلوفة ونزل» (٣) .

ومما يذكر بهذا الصدد ان الطبيب ابا نصر المسيحي طبيب الخليفة الناصر لدين الله، «حصل من العين الدنانير عشرين الف دينار ومن الثياب والخلع جملة وافرة، والزم الخدمة، وفرضت له الجامكية السنية والراتب والاقامة»(٤). بعد ان عالج الخليفة الناصر لدين الله وشفاه من حصاة في مثانته (٥) .

ودليل آخر على ثراء الأطباء «اذكر عن الطبيب ابي الفرج صاعد بن هبة بن توما من اهل بغداد بعد ان قتل في سنة (٦٢٠هـ/١٢٢١م) «انه حمل من داره الى الخزانة من الدنانير العين ثمانمائة الف وثلاثة عشر الف دينار، وبقي الآثات والاملاك بما يقارب تتمه الف الف دينار فترك لولده» (٦) .

---

(١) كاظم : مؤيد عبدان / الخدمات الصحية في العراق خلال العصر العباسي ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، جامعة الموصل /١٩٨٥ ، ص ٩٦ .

(٢) ابن ابي اصيبعة / المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ ؛ خطاب : فرات فائق / الكحالة عند العرب ، منشورات وزارة الاعلام ، دار الحرية للطباعة /١٩٧٥ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٤) ابن ابي اصيبعة / المصدر نفسه ، ص ٤٠٤ ، السامرائي / مختصر تأريخ الطب العربي ج٢ ، ص ٤٢١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٠٤ ؛ المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٤٢١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤٠٥ .

وبالرغم من المجد الذي توصل اليه الاطباء وعاشوا تحت كنفه لم تخلو حياتهم من نكبات او احداث لان العلاقة بين الاطباء والخلفاء مهما تكن راسخة وقوية اذ انها تبنى ثقة ، ومعلة بنجاح الأطباء بالشفاء او اخفاقهم فالطبيب ملزم ان يهب السلامة لكي يحافظ على نفسه وحين اخفق الاطباء في علاج الخليفة موسى الهادي (١٦٩ – ١٧٠هـ/ ٧٨٥ – ٧٨٦م)«قال لهم: انتم تأخذون اموالي وجوائزي، وفي وقت الشدة تتقاعدون بي» فأمر بمعاقبتهم (١) .

وهنالك حالة اخرى تمثل موقفين نقيضين من خليفة واحد الى طبيب واحد فعند مرض احدى نساء حاشية الخليفة الرشيد عالجها الطبيب جبرائيل وبرئت فأمر الخليفة له (بخمسمائة الف درهم) واحبه وجعله رئيساً لجميع الأطباء(٢) ولكننا نجد الخليفة الرشيد ايضاً يسأل طبيبه في مرضه: «لم لاتبرئني» ، فيجيب جبرائيل : انني نصحتك بالامتناع من التخليط بالطعام وتخفيف الجماع وان تعود عن طوس وارجو ان يمن الله بعافيتك فأمر بحبسه (٣). وهذا يبين درجة الثقة التي تصل بين الخليفة وطبيبه بحيث مهما يكون المرض على الطبيب ان يشفيه ويمنحه السلامة، وفي حالة اي صعوبة تواجه الطبيب في ذلك وتحول دون شفائه او ان يرد بجواب موضوعي عن سبب المرض يغيض الخليفة ، يعرض نفسه للخطر .

الا ان اهم اشارة في هذا المجال تلك التي جاءت من عهد الخليفة الناصر لدين الله، حيث كان مرضه شديداً وطال امده وزاد المه وعند عدم توفيق طبيبه ابي الخير المسيحي في معالجته، دعا الطبيب ابانصر بن المسيحي، «فقال الخليفة هذا الشيخ اخطأ ولا بد من صلبه – فقام ابو نصر بن المسيحي وقبل الارض وقال: يامولانا بحق نعمة الله عليك، وبمن مضى من اسلافك الطاهرين لاتسن

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .
(٢) القفطي / المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

على الاطباء هذه السنة، واما الرجل فلم يخطىء في التدبير ولكن لسوء حظه لم ينته المرض » (١) فعفى عنه الخليفة .

واحياناً تكون المظاهر الاجتماعية غير العادية سبباً آخر في نكبة الاطباء وتعرضهم للخطر، وهذا ماحصل للطبيب بختيشوع بن جبرائيل في زمن الخليفة المتوكل، اذ« بلغ في الجلالة او الرفعة، وعظم المنزلة، وحسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة، ومباراة الخلافة في الزي واللباس، والطيب، والفرش والصناعات والتفسيح، والبذخ في النفقات مبلغاً يفوق الوصف، فحسده المتوكل وقبض عليه » (٢) .

ومن الاطباء من ادركوا مخاطر وقلق هذه العلاقة فحافظوا على علاقتهم وصولا الى استقرارها وابعادها عن المخاطر ، واحكموا الموازنة بدقة وتواصلوا مع سلسلة من الخلفاء كالطبيب يوحنا بن ماسويه،«الذي خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل» (٣) .

ولم يقتصر نشاط الاطباء الاجتماعي على البلاط والاشراف على وضع الخليفة الصحي، بل ايضاً قدموا خدمات للعامة، وهذه الخدمات كانت تقدم بتوجيه او اشراف من الدولة ، واحياناً تطوعاً او مبادرة ذاتية من الأطباء، فقد وظفوا الخبرة الطبية في خدمة المجتمع والذي يمكن ان نطلق عليه اليوم (طب المجتمع) من خلال رعاية اهل القرى والمساجين، ومن الاشارات التاريخية التي تدل على ذلك هو ماكتبه الوزير علي بن عيسى بن الجراح الى الطبيب سنان بن ثابت قائلا:«فكرت فيمن بالسواد من اهله وانه لايخلو من ان يكون فيه مرضى لايشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء فتقدم .. بأنفاذ

---

(١) ابن ابي اصيبعة / المصدر السابق ، ص ٤٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٥ ، ينظر / ابن الاثير / الكامل في التاريخ ، ج٧ ، ص ٨٥ .

(٣) ابن النديم : ابو الفرج محمد بن اسحق (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) / الفهرست ، مكتبة الخياط ، بيروت /١٩٦٤ ، ص ٤١١ ، القفطي / المصدر السابق ، ص ٣٨١ .

متطببين وخزانة من الادوية والاشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ماتدعوا الحاجة الى مقامهم ويعالجون من فيه ثم ينتقلون الى غيره» (١).

ومما يؤكد انسانية الاطباء ورسالتهم الاجتماعية التي لاتقتصر على ملة معينة هو عدم اقتصار معالجتهم الطبية على المسلمين فقط دون اهل الذمة، اذ عندما وصل الاطباء الى سورا (٢) ونهر ملك (٣) ، ووجد اكثر سكانها يهوداً استفسر الطبيب سنان من الوزير ابن الجراح رأيه في معاملتهم ، كتب الوزير له قائلا: «ليس بيننا خلاف .. ولكن الذي يجب تقديمه والعمل بهمعالجة...المسلمين قبل اهل الذمة» (٤) .

وقد ازداد انتشار الخدمة الطبية ضمن اطار المجتمع لتشمل السجين ، كما هو شأنها مع الطليق ، ويتضح ذلك من خلال ماكتبه ابن الجراح الى الطبيب سنان «اطال الله ... فكرت ... في امر من في الحبوس، وانهم لايخلون مع كثرة عددهم وجفاء اماكنهم ان تنالهم الامراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الاطباء في امراضهم ، فينبغي .. ان تفرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم ويحملون معهم الادوية والاشربة وما يحتاجون اليه من المزورات (٥) ، وتتقدم اليهم بان يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريحوا عللهم فيما يصفونه لهم» (٦) .

(١) القفطي / المصدر نفسه ، ص ١٩٣ – ١٩٤ ، ابن ابي أصيبعة / المصدر السابق ، ص ٣٠١.

(٢) «موضع بالعراق من ارض بابل ، وهي مدينة السريانيين» ، الحموي / المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٧٨ .

(٣) «وهي كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى» المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٢٤.

(٤) القفطي / المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ابن ابي اصيبعة / المصدر السابق ، ص ٣٠١؛ متز ، آدم / الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله إلى العربية ، محمد عبدالهادي ابوريده ، الطبعة الرابعة ، جزءان ، دار الكتاب العربي ، بيروت /١٩٦٧ ، ج٢ ص ٩٢ كاظم / المرجع السابق ص ٧٥

(٥) مفردها مزورة : وهي مرقة يطعمها المريض تطبخ خالية من الادهان» ، رضا / المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٧٨ .

المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٠٢ .

(٦) القفطي / المصدر السابق ص ١٩٣ ، ابن ابي اصيبعة / الصادر ص ٣٠١ ، متز المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

ولم ينحصر نشاط الاطباء الاجتماعي بالاشراف على من في الارياف والسجون، بل كان لهم نشاط اخر تمثل في مرافقة الجيوش عند الحروب وهي تشبه اليوم وحدات الميدان الطبية (١) . ثم اتسع نشاطهم للاشراف على قوافل الحجاج بهيئة البعثة الطبية للاشراف على سلامة القافلة ، ومعالجة من تمر بهم القافلة عبر الصحراء ، فضلاً عن تجهيزهم بالادوية والاشربة (٢) .

وفضلا عن ذلك الفت كتب في تدبير الحجاج ككتاب (في تدبير الابدان في سفر الحج) (٣) .

ومن اهتمام الأطباء بالمجتمع ماتورده الاشارات التاريخية عما قدموه من كتب الفت للمسافرين ككتاب (رسالة في تدبير الابدان في السفر للسلامة من المرض والخطر) للطبيب قسطا بن لوقا، (٤) ومقاله في (تدبير المسافرين) للطبيب الرازي (٥) .

ومن الأطباء من اسهموا بتقديم الخدمات الطبية مروءة ومساعدة، فقد كان بعضهم يقدمها منفرداً، كالطبيب ابن جزلة (ت ٤٧٣هـ/١٠٨٠م) الذي كان «يطب اهل محلته وسائر معارفه بغير اجرة ولا جعالة ، بل احتساباً ومروءة»

---

(١) معروف : ناجي / اصالة الحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، وزارة الثقافة ، بيروت /١٩٧٥ ، ص ٣٤٥ ، الرفاعي ، انور / الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر دمشق /١٩٧٣ ، ص ٦٠٩ .

(٢) ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) / المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، مطبعة المعارف العثمانية /١٩٥٩م ، الطبعة الاولى ، جـ٦ ، ص ٢٥٣ .

(٣) ابن ابي اصيبعة / المصدر السابق ، ص ٣٣٠ ، السامرائي / المرجع السابق ، جـ١ ، ص٤٨٦ ، كاطع / المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٤) السامرائي / المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٨٤ .

(٥) ابن ابي اصيبعة / المصدر السابق ، ص ٤٢٣ ، وقد اختلف بتاريخ وفاة الطبيب الرازي فبعضهم يشير إلى حوالي سنة (٣١٤هـ/٩٢٩م) ، وقيل قبل هذا التاريخ بعشر سنوات ، وقيل بعده بخمس سنوات ، وقيل خلاف ذلك ايضاً ، السامرائي / المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٠٩ .

ويحمل اليهم الادوية بغير عوض» (١) كما كان فتح الدين الشيباني (٢) يقوم بتوزيع الادوية والاشربة والمعاجين كل جمعة مجاناً (٣) .

وتقدم الخدمات الطبية احياناً لفئة اجتماعية خاصة كطلبة المدرسة النظامية اذ كان الطبيب ابن التلميذ، يداوي الطلبة في داره التي كانت تلي المدرسة المذكورة، ويهب المريض دينارين بعد ان ينتهي من علاجه (٤) .

كما كان الاطباء يتصدقون (٥) ويقومون باعمال بر ومعروف « وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين والأخذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على مايتجاوز الحد في الصفة والشرح» (٦) .

وعلى الرغم من النشاط الذي مارسه الاطباء بتقديم الخدمات الطبية للمواطنين فانهم قاموا بعمل اخر، افادوا به بعض الناس الذين لم يقدروا على مراجعة المستشفيات لسبب او لآخر من خلال تأليف كتب خاصة لهم مثل (كتاب الى من لايحضره طبيب)، وكتاب (برء الساعة) ، وكتاب (طب الفقراء) للطبيب الرازي (٧)، وهذا يتطلب وعياً صحياً لدى المواطنين حتى يفيدوا منه .

---

(١) القفطي/ المصدر السابق، ص ٣٦٦؛ ابن العبري: غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)/ تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت/١٩٥٨، ص ١٩٥ .

(٢) «هو فتح الدين ابو الظفر الحسن بن محمد بن كر بن أبي الهيجاء الشيباني (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ابن الفوطي : كمال الدين ابو الفضل عبدالرزاق بن تاج الدين الشيباني / تلخيص مجمع الآداب ، (دمشق /١٩٦٥م) ، تحقيق ، مصطفى جواد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي . (٤ أجزاء) ، ج٤ ، ق٣ ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٤ ، ق٣ ، ص ٣٤ .

(٤) ابن ابي اصبعة / المصدر السابق ، ص ٣٥٠ . ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) / وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، (٨ أجزاء) ، وزارة الثقافة / بيروت /١٩٦٩م ، ج٦ ، ص ٧٧ .

(٥) «وكان بعض الشعراء ببغداد اتى إلى امين الدولة (ابن التلميذ) وشكى حاله واستوصفه فوصف ما يصلح للمرض الذي شكاه ، ثم دفع له صرة فيها دنانير وقال له : هذه تصلح بها مزورة زيرباج فأخذها وبرأ بعد أيام فكتب اليه :-

اتيته اشتكي وبي مرض — إلى التداوي والرفد محتاج
فقلت ، اذ برني وابراني — هذا طبيب عليه زرباج

ابن ابي اصبعة / المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ ، ص ٤١٦ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٢٢ ، ص ٤٢٧ .

الخاتمة :

تبين مـــن خلال البحث ان الخلفاء العباسيين ، اهتموا بالاطباء اهتماماً غيـــر عادي ، لانهم رأوا ان الطبيب هو مبعث الصحة من خلال اشرافه عليهم ومتابعتة وضعهم ووضع اسرهم الصحي ، فكان لهذا الأمر اثر بالغ في ارتفاع منزلتهم وتقريبهم من الخلفاء ، وتكريم الخلفاء لنبوغهم ونجاحهم في معالجة صعاب الامور وعويصها ، فغالباً مايكون التكريم مادياً او معنوياً واحياناً مهنياً ، اذ سمي البعض منهـم رئيساً لجميع الاطباء . واما هذه الاهمية تصاعد نشاط الاطباء السياسي والاجتماعي بشكل يتكافأ مع مستواهم العلمي المتقدم، واصبح مركزهم الاجتماعي عند الخلفاء احياناً اكبر من القادة والامراء، واصبح تدخلهم في الشؤون السياسية للدولة بشكل مباشر او غير مباشر فمنهم من كلف بمهمات سياسية كسفراء او رؤساء وفود او وزراء في الدولة، وعلى الرغم من ذلك، لم تكن الدولة تتوانى عن ردعهم عند تجاوزهم حدود المهنة او ممارستهم لنشاط سياسي سلبي .